المبحث الرابع

السياق اللغوي وأثره فِي تناسق آيات القرآن ومستوياته

تجتمع المفردات فِي مجالات دلالية، لأنّ الكلمة مكانها فِي نظام من العلاقات التي تربطها بكلمات أخرى فِي المادة اللغوية[1]، وَهَذا النظام هُوَ السياق اللغوي الذي يقوم عَلى أساس التشابك العلائقي القائم بين وحدات اللغة والمتعرض دوماً للتغيير والتحوير فِي البنى المعجمية والتركيبية الخاصة به، لأنَّه عبارة عن النظم اللفظي للكلمة والبيئة اللغوية للنص، ممّا أدى إلى أنّ تحديد دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد مجموعة السياقات الواردة فيها، فلا تتوافر للكلمة معنى كامل خارج السياق، فضلاً عن المعنى المركزي للمنطوق، وَهُوَ أصل دلالة المنطوق، فضلاً عن دورانه فِي فلك الأنساق الكلامية المتنوعة[2] وهذا يدل على أثره فِي تناسق آيات القرآن الكريم، والتناسق والربط تارة يكون ظاهر جلي، وتارة يكون باطن خفي[3] وهذا التناسق والربط بنوعيه بين الآيات أو النص القرآني، له أثرهُ فِي فهم المعنى الدلالي والانفعالي والذوق الحسي والمعنوي والفني للآيات القرآنية.

وهذا الأثر للسياق اللغوي فِي تناسق آيات القرآن يتعين من خلال مستويات أربعة تساعد على التجانس والترابط اللفظي والمعنوي للآيات الكريمة، وكيف لا يوجد ترابط وتناسق وتجانس بينها وهي من لدن حكيم عليم.

وهذه المستويات هي:

---

(١) ينظر: أرشيف منتدى الفصيح: ٣٦٨٦٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٦٨٦٣.

(٣) مناهج فِي تحليل النظم القرآني: ١٥٥.

المطلب الأول: المستوى الصوتي

هناك علاقة بين الصوت والدلالة فِي اللغة العربية أظهر ممّا فِي اللغات الأخرى، لأنّ اللغة نظام من الرموز الصوتية التي تقوم على مجموعة من العلاقات والقواعد والعناصر المتوافقة فيما بينها، وإن دراسة دور الأصوات فِي بيان المعنى يسمى فِي علم الأصوات العام بعلم وظائف الأصوات ومعرفته من المسلمات فِي النظرية السياقية، والمستوى الصوتي يعد من الملامح النطقية غير التركيبية المصاحبة للعملية الكلامية، والمشاركة فِي أداء الرسالة اللغوية، وَهَذَا المستوى له ظواهر أسلوبية مميزة فِي الكلام المنطوق[1] لذا فالمستوى الصوتي أو الدلالة الصوتية هُوَ المعنى المستفاد من نطق ألفاظ معينة[2] وَهُوَ طريقة الداء اللغوي المصاحب للمنطوق، والذي يسمى فِي الدراسات الحديثة الفونيم، وهي:

أ – **النبر**: هُوَ درجة أو قوة النفس التي ينطق بها صوت أو مقطع، والصوت معروف. أمّا المقطع فهو عبارة عن صوتين الأول صامت والثاني صائت[3] والنبر يعني الضغط على مقطع معين من مقاطع الكلمة، فيعطي لهذا المقطع المنبور قدراً من التمييز أو الوضوح السمعي، والذي يحمل بدوره قيمة دلالية كالانفعال أو الاهتمام أو التقرير أو التأكيد[4]. أو هُوَ الذي يترجم لنا

---

(١) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية فِي القرآن الكريم: ٧٣؛ ينظر: السياق والمعنى: ١٤، ١٥؛ ينظر: أخطاء اللغة العربية المعاصرة: ٤٠.

(٢) الدلالة الصوتية الصرفية فِي سورة يوسف: ١.

(٣) السياق والمعنى: ١٥.

(٤) أصول النظرية السياقية الحديثة: ٤١؛ وينظر: النحو والسياق الصوتي.

المواقف الانفعالية التي تنطوي عليها نفسه أو هُوَ ارتفاع الصوت وانخفاضه مراعاةً للظروف المؤدى فيها[1].

والنبر على ثلاث درجات: النبر القوي، النبر المتوسط، النبر الضعيف.

ويقوم النبر بوظيفة التمييز بين المعاني فِي داخل الكلمة ويعمل جنباً إلى جنب مع التنغيم فِي التمييز بين الأساليب، لذا فهو ملمح من ملامح الكلمة أو عنصر من عناصرها التي تميزها عن غيرها، وتحيلها كلاًّ متكاملاً من حيث البناء والطلاء، وَهُوَ ضرباً من التطريز، تأكيداً لقيمته النسبية فِي بنية الكلمة، وهذا التطريز لا يعني مجرد التجويد والتزيين وإنّما يعني فضلاً عن ذَلِكَ أنّه عنصر يكسب بنية الكلمة تكاملها، ويمنحها قواماً متميزاً خاصّاً بها، الأمر الذي يجعل الكلمة وحدة متكاملة متسقة البناء والطلاء معاً، فيعد النبر مرتبطاً بقوة الصوت وعلوّه. وأنّ النبر يقع فِي أي مقطع من المجموعة الكلامية[2].

ومثال النبر فِي قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[3]، فلفظة (المفر) هذه، موضع النبر فيما يغير المعنى كاملاً، فإذا كانت النغمة هابطة عند النطق بالكلمة (مفر) بحيث تنتهي بحرف الراء، فإنّ المعنى ينقلب تماماً (مفَرْ) وبالتالي لابد لقارئ القرآن أن يتنبه إلى أن يكون النبر صاعداً عند النطق بالفاء وينتهي بالراء: م ف ر[4].

وَقَدْ يكون رسم الكلمة واحداً، إلاّ أنّ النطق يختلف، مثل: (ألم) و(ألف

---

(١) أرشيف ملتقى أهل الحديث: ١٤١٥٦.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ١٦؛ ينظر: مناهج البحث فِي اللغة: ١٦٣.

(٣) سورة القيامة: ١٠.

(٤) ينظر: أرشيف ملتقى أهل التفسير: ١٤١٥٦.

لام ميم). الأحرف المقطعة. و(ألم) على اعتبار الهمزة للاستفهام و(الألم) من الإيلام، فالنبر وحده هُوَ الذي يحل الإشكال[1].

ومثاله أيضاً فِي قوله تعالى: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾[2]، فيكون النبر على (امرأة)، ويكون المعنى كما يلي: امرأة متزوجة مُحصنة وتفعل فعلتها تلك هذا شنيع، والنبر أيضاً على (العزيز)، ويكون المعنى: امرأة العزيز تفعل ذَلِكَ، هَذَا شنيع، لأنّها ليست زوجة فلاّح أو فرّاش. وحُوّل النبر إلى (تراود)، فيكون المقصود كما يلي: المعوَد عند بني آدم –بل وحتى عند الحيوان– أن يكون الذكر هُوَ الطالب للأنثى فهو الذي يراود وهي التي تتدلل وتمتنع. وكذلك فِي لفظة فتاها: فما أشنع ما قامت به امرأة العزيز، وفيه معنى لا يخفى على أحد، لو راودت مثلاً شابّاً، أو رجلاً من طبقتها[3]. لهذا يعد النبر من القرائن المهمة التي تساعد على فهم المقصود، لأنه التشديد فِي تلفظ صوت أو مقطع، لذا فهو مصطلح صوتي يعني الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة ليجعله بارزاً وواضحاً فِي السمع أكثر من غيره من مقاطع الكلمة. وله وظيفة دلالية تتحدد وفق نوع النبر، فإن كَانَ النبر كلميّاً أظهر التباين الدلالي فِي السياق، وإن كَانَ نبراً مقطعيّاً أي: على مستوى المقطع أظهر التباين فِي الكلمة، فهو إبراز نطق حرف بكلفة دون غيره، فلهذا يكون النبر نداءً نفسيّاً يحمل كُلّ معاني الكلام، وتغيير النبر (الصوت) وتحويله يناسب أغراض الكلام، وَهُوَ الرسالة التي توصل المعنى إلى المستمع[4]. فإنّ كُلّ زيادة

(١) أرشيف ملتقى أهل التفسير: ١٤١٠٦.
(٢) سورة يوسف: ٣٠.
(٣) أرشيف ملتقى أهل الحديث– ٣: ٢/٣٢٠.
(٤) أرشيف ملتقى أهل التفسير: ١٤١٥٦.

فِي قوة الصوت وجهده تستلزم قوة فِي الدلالة، وارتقاء فِي المعنى، وهذه من أبرز الخصائص للغة العربية، التي يدق فيها الالتحام بين الصوت والدلالة وفيها إشارات لانفعالات خاصة وألوان من الإحساس، فالأصوات القوية تناسب مواقف الشدة والزجر والتعنيف، والأصوات اللينة الهادئة الجرس تناسب حالات الرّخاء والهدوء والارتياح[1]. لذا انصهر فِي النصوص القرآنية الشكل مع المضمون، والصوت مع الدلالة، فانتظمت الأصوات فِي سياقات تركيبية مناسبة، فاكتسبت قوة ومتانة وقدرة إيحائية وتعبيرية خاصة.

ب- **التنغيم**: هناك معاني عدة لمصطلح التنغيم وهي:

- هُوَ الإطار الصوتي الذي قالت أو قيلت به الجملة فِي السياق[2].

- وَهُوَ رفع الصوت وخفضه فِي أثناء الكلام، للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة[3].

- وَهُوَ عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات فِي حدث كلامي معين[4].

- وَهُوَ المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (الصعود) والانخفاض (الهبوط)[5]. أو هُوَ نوع من التلوين الصوتي الذي يكسو به المتحدث نطقه للكلمات أو الجمل، أو العبارات، فتبدو النغمة هابطة أو عالية، أو متوسطة،

---

(١) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية فِي القرآن الكريم: ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) الدلالة الصوتية والصرفية فِي سورة يوسف: ٩؛ واللغة العربية معناها ومبناها: ٢٢٦.

(٣) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: ١٠٦؛ ومناهج البحث فِي اللغة: ١٦٤.

(٤) أسس علم اللغة: ٩٣.

(٥) علم اللغة مقدمة القارئ العربي: ١٥٩.

أو طويلة، أو قصيرة، لينة أو خشنة، رقيقة أو مفخمة، الأمر الذي يؤثر تأثيراً مباشراً على معنى الوحدة المصحوبة النغمة[١].

ولكل أسلوب نغمته الخاصة التي توضح الفرق بين الجمل الخبرية والإنشائية والاستفهامية، لذا هُوَ تغيرات موسيقية تتناوب الصوت من صعود إلى هبوط، أو انخفاض إلى ارتفاع لغاية أو هدف حسب المشاعر والأحاسيس التي تنتابنا من رضا أو غضب، ويأس أو أمل، تأثير أو لا مبالاة، إعجاب أو استفهام، شك أو يقين، نفي أو إثبات، فهو تنويعات صوتية تكسب الكلمات نغمات موسيقية متعددة، ويعد من قرائن التعليق اللفظية فِي السياق[٢]. فالوظيفة الصوتية للتنغيم هي النسق الصوتي الذي يستنبط التنغيم منها بيان وتوضيح الدلالة من خلال التنغيم العام للمقطع فِي النموذج الفني، فهو يعد وسيلة للتمييز بين المعاني، ويجلّي النص ويوضحه ويبيّن مقاصد الكلام، وَهُوَ أكثر إيصال للمعنى[٣].

فالتنغيم له دور فِي الأداء الصوتي والتناسب التركيبي فِي بيان الدلالة، وَهُوَ قمة الظواهر الصوتية التي تكسو المنطوق كله، وتتخلل عناصره المكونة له وتكسبه تلويناً موسيقيّاً معيناً بحسب مبناه ومعناه وبحسب مقاصده التعبيرية وفقاً لسياق الحال أو المقام[٤]، وَهَذَا ما يفسر لنا قلة اختلاف النحويين والبلاغيين فِي النص القرآني، لسماعهم إياه من القرّاء بنبره وتنغيمه ووصله

---

(١) أصول النظرية السياقية الحديثة: ٤١.

(٢) الدلالة الصوتية والصرفية فِي سورة يوسف: ٩؛ ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٦٠؛ ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٢٦.

(٣) ينظر: مناهج البحث فِي اللغة: ١٦٤؛ ينظر: مجلة جامعة أُم القرى: ٢٣.

(٤) ينظر: السياق والمعنى: ١٧.

وفصله، لأنّ فيه صفة إيقاعية وانسجام موسيقي بين مقاطع الكلمات ومن ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾[1]، فلا اختلاف فِي إنّ الأداة (هل) تفيد التحقيق؛ لأنّها بمعنى (قَدْ) وَهَذَا الأسلوب هُوَ خبري لا إنشائي، والذي رجح هَذَا المعنى هُوَ سماع هذه الآية من القرّاء بالتواتر، فمعرفة التنغيم أو الأداء يعين كثيراً فِي تحديد الأسلوب[2].

فالنص القرآني يحرص على الإيقاع النغمي فِي تعيين الأسلوب لبيان المعنى فضلاً عن الحفاظ على التناسب بين أصوات كلماته، لذا فهو راعى فكرة العلاقة بين الأصوات ودلالاتها ووضعها فِي نسيج لغوي بلغ الغاية فِي الدقة والإحكام[3].

واللافت للنظر وبخاصة لقارئ القرآن الكريم يجد دقّة المستوى الصوتي على مسائل كثيرة، لعل أهمها مسألة المتقابلات فِي الظاهرة الصوتية، ونعني بها أنّ فِي القرآن ألفاظاً ترد فِي نمط صوتي معين فِي بعض السياقات، وترد على نمط صوتي آخر فِي سياق آخر أو سياقات أخرى، نمو (يشاق) و(يشاقق)[4].

فالأقوال من جمل وعبارات ونصوص ليست مجرد تتابعات من الكلمات فهناك ظاهرتان صوتيتان متميزتان، تعلوان الكلمات المتتابعة، أي: الأجزاء المنطوقة هي موسيقى الكلام والمصاحبات اللغوية، وتشمل هذه السمات: النبر والتنغيم[5] فكل منهما له وظيفة دلالية فِي تحديد المعنى، وهما من مهمات القرائن

---

(١) سورة الإنسان: ١.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ١٩.

(٣) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية فِي القرآن الكريم: ٧٤.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٦٣.

(٥) ينظر: اللغة وعلم اللغة: ٣٢.

للدلالة فهي ترشد إلى المراد، وتفرق بين الخبر والإنشاء وبين الجد والتهكم. إذن فثمّ علاقة بين المعنى فِي النفس، وبين تجلّيه فِي الأصوات والحركات.

فتأتي أهمية هذه المفاتيح الصوتية من إنّها تنتج نحو ٣٨% من الرسالة اللغوية[١] لذا يربط التنغيم عناصر التركيب بعضها ببعض. وتسمى هذه المفاتيح الصوتية أو المستوى الصوتي بالفونيمات وهي: أصغر وحدات صوتية تغييرها يغير المعنى، ولها أثر فِي بنية الكلمة وما يصاحب هذه البنية من معاني ودلالات. وهي على قسمين[٢]:

١- **فونيمات رئيسية**: وهي تلك الوحدة الصوتية التي تكون جزءاً من أبسط صيغة لغوية ذات معنى منعزلة عن السياق. وهي النبر، لأنّها تتعلّق بالكلمة الواحدة.

٢- **فونيمات ثانوية**: وهي ظاهرة أو صفة صوتية ذات مغزى فِي الكلام المتصل؛ فالفونيم الثانوية لا تكون جزءاً من تركيب الكلمة، وإنّما تظهر وتلاحظ فقط حين تُضمّ كلمة إلى أخرى، أو حين تستعمل الكلمة بصورة خاصة، كأن تستعمل فِي جملة. وَهُوَ التنغيم، ويتغير نتيجة تغيره فِي السياق اللغوي الجاري فيه.

المطلب الثاني: النبر وعلاقته بالتنغيم[٣]

إنّ النبر يكون على الكلمة وحدها، ودلالته صرفية والتنغيم يكون على مستوى الجملة ومجاله التراكيب، التي كونتها الكلمات داخل السياق، فالنبر

---

(١) أخطار اللغة العربية المعاصرة: ٤٠.

(٢) ينظر: بحوث فِي اللغة: ٤؛ وينظر: أسس علم اللغة: ٦٢؛ وينظر: دلالة السياق: ٣٥٢.

(٣) ينظر: بحوث فِي اللغة: ٤، ١٠؛ وينظر: دلالة السياق: ٥٣.

صنو التنغيم مثالاً على الفونيم الثانوية، فلا يكون جزءاً من تركيب معين للكلمة الواحدة، كالفونيم الرئيسة، فالنبر يكون بزيادة كمية من الهواء على صوت أو أكثر من أصوات الكلمة فِي التركيب الواحد، فيعلو هَذَا الصوت على بقية الأصوات الأخرى التي تشكل مقاطع الكلمة فيحدث التفاوت قوة وضعفاً بين الأصوات، فالصوت أو المقطع الذي ينطق أقوى يسمى صوتاً منوراً، وَهُوَ قوة التلفّظ، وتؤثر درجة النبرة فِي طول الصائت وعلو الصوت وللنبر أثراً فِي تغيير بنية الكلمة من معنى صرفي إلى آخر، فلو نطقنا كلمة (كَذَبَ) بفتحة على عين الفعل، لوجدت أنّ الأصوات فيها متساوية نبراً، لكن إذا ما نقطناها بـــ(كذّبَ) بالتضعيف، فإنّ عين الفعل تفاوت فِي النبر عن الأصوات الأخرى، ممّا جعله ينقل الكلمة إلى بنية أخرى ذات دلالة معينة، فتغيير الصفة الصرفية يؤدي إلى نوع من التغير فِي الوظائف النحوية والدلالية، ومن هنا جاءت أهمية النبر والتنغيم، فبينهما صلة وثيقة، فلا يحدث تنغيم دون نبر، لأنّ التنغيم تغيرات موسيقية تتناوب الصوت من صعود إلى هبوط، أو من انخفاض إلى ارتفاع، فهذا التغيير النغمي يقوم بدور كبير فِي التفريق بين الجمل، فهو حَكَم فِي دلالات التراكيب والجمل[1].

فالاتساق الصوتي الدلالي يبلغ ذروته فِي الأسلوب المحكم للقرآن الكريم، حيث نجد أصوات السياق تنهض لأداء الدلالة مصحوبة بجرسها اللائق، وصيغتها المناسبة، وإيحائها المميز، والجرس والإيقاع وعلاقته بالدلالة فِي القرآن الكريم بلغ الكثير منه، فهو يتخير الألفاظ تخيّراً يقوم على أساس من تحقيق

(١) ينظر: بحوث فِي اللغة: ٦، ٧؛ وينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٠؛ وينظر: دلالة السياق: ٣٤٧.

الموسيقى المتسقة مع جو الآية، وجو السياق كله، بل جو السورة كلها، لأنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هَذَا الانفعال بطبيعته إنّما هُوَ سبب فِي تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدّاً أو غنّة، أو ليناً أو شدّة[1].

٢- المستوى الصرفي والمعجمي:

المستوى الصرفي يعنى بدراسة الكلمة المنفردة وما يعتريها من ظواهر صرفية معروفة، وهي أبنية الصيغ المكونة لأسلوبنا، أي: مجال انتقال المفردات وتغيرات دلالتها وتغير بنيتها الصوتية وما يحدث فيها من اشتقاقات وإسقاط وحذف أو تسكين أو إدغام أو إبدال وإعلال ودمج، وتبادل بين الحركات يؤدي إلى تفريق صرفي وظيفي، فتنتمي صيغة ما إلى جنس صرفي معين، وبتغير مجال انتقالها أو إحدى حركات هذه الصيغة إلى جنس صرفي آخر[2].

والمستوى المعجمي وهي الدلالة الأساس التي تأخذها من الألفاظ الظاهرة على المعنى، إذ تعد من العوامل الرئيسية فِي فهم النص سواء كَانَ مسموعاً أو مقروءاً، فنجد لكل كلمة فِي اللغة دلالة معجمية مستقلة عن الدلالة الصوتية أو الصرفية أو النحوية، وهذه الدلالة متصلة بالمعنى الأساسي أو الأولي أو المركزي[3].

فالصرف يتكون من نظام من المعاني التي تعبّر عنها المباني، لأنّ هذه المباني

---

(١) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية فِي القرآن الكريم: ٢٣؛ وينظر: نظرية السياق: ٢٣٠، ٢٣١؛ ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٧٩.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ٢٠؛ وينظر: أرشيف منتدى الفصيح- ١: ٢٤٣٣؛ ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية- القاهرة: ٢٥؛ ينظر: دراسات فِي علم اللغة: ٢٠١، ٢٠٢.

(٣) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٥٥؛ وينظر: السياق والمعنى: ٢١.

تتحقق بدورها بواسطة العلاقات، فمن المعاني والمباني تتكون اللغة ومن العلاقات يتكون الكلام، وأنّ الكلمات العربية يلحقها تعديل أو تحويل أو تحوير وتغيير بواسطة الحركات، فينتج عنه مجموعة من الصيغ الصرفية لكل منها قيمة معجمية دلالية مختلفة، فالألفاظ بوضعها الإفرادي المعجمي أو بعدّها مجموعة من الأصوات المنظمة على وفق قانون اللغة تحمل فِي ذاتها من المعاني نختار منها ما يناسب الموضوع الذي نتكلم عنه، فالمتكلم لديه مجموعة من الاحتمالات وَهُوَ يختار من هذه الاحتمالات المتاحة الأكثر ملائمة لما يريد قوله، والألفاظ فِي معانيها لا تكون على درجة واحدة فِي الاستعمال، فمنها متداولة بكثرة ومنها أقل دوراناً فِي حياتنا اليومية ومنها قليل الاستعمال أو نادر[1].

وتلجأ اللغة إلى صنع الكلمات من أساسها من خلال هَذَا النظام الصرفي على ألفاظ جديدة بتوليد مفردات جديدة من المواد اللغوية فتتطور الدلالة المعجمية وفق ذَلِكَ النظام. والدلالة المعجمية أو المعنى المعجمي هُوَ ذَلِكَ المعنى الذي تدل عليه الكلمة المعجمة، ويسمى المعنى المطلق، أو المعنى العرفي الذي أُعطى للكلمة ويصلح أن يسجله المعجم، والعلاقة بين الكلمة ومدلولها هي تلك العناصر اللغوية التي تعبّر عن ماهيات التصورات[2] واتخاذ الكلمات المعجمية مراكز ضبط فِي حل المشكلات فِي النص إنشاءً وتحليلاً، لأنّها تترابط فِي الجملة من حيث هي ذوات دلالات مفهومية فِي الشكل[3].

---

(١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ١٦٤؛ وينظر: دراسات فِي علم اللغة: ٢٠١؛ وينظر: السياق والمعنى: ٢١.

(٢) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٥٦، ٢٥٧؛ وينظر: دلالة السياق: ٢٨٩.

(٣) ينظر: دلالة السياق: ٢٩٦، ٢٩٧.

فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ...﴾[1] والمعنى فِي لفظة (يصطرخون) غير المعنى فِي لفظة (يصرخون)، لأنّ الاصطراخ فيه يدعون ويستغيثون ويصيحون[2]، ويتصارخون يفتعلون من الصراخ[3] وَهُوَ الصياح بجهد ومشقة، واستعمل فِي الاستغاثة لجهد المستغيث صوته، وزيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الندم والاعتراف به[4]، ويدعون بالويل والثبور، فضلاً عن إنّهم يطلبون الاستغاثة ولا يجدون ما يطلبون[5]، والاصطراخ فيه من الاضطراب وَهُوَ صوت المعذب مع طلب الاستغاثة وعدم إجابة الدعاء والاستغاثة وطلب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالح غير الذي كانوا يعملون، يتبيّن من إنّ تغيير المبنى الصرفي للفظة (يصرخون) إلى (يصطرخون) قَدْ غير المعنى السياقي اللغوي لهذه الآية، ممّا أدى إلى تأثير ذَلِكَ على القارئ، بتدبّر أو السامع لهذه الآية فِي الوقع النفسي والعاطفي، والخشية من شدة الهول والفزع لما يكون عليه الكفار والظالمين من العذاب، فضلاً عن البر فِي هذه اللفظة والجرس النغمي الذي يؤثر على الوجدان، وما يهيّئ له من الحركات المختلفة فِي اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فِي النفس من أصولها، وهذا التناسب والتناسق الجمالي في الصوت جعل من العبارة غاية في الدقة وروعة في الجمال.

---

(١) سورة فاطر: ٣٧.

(٢) تفسير الثعلبي: ١١٤/٨.

(٣) تفسير البوغي: ٦٩٨/٣.

(٤) تفسير الزمخشري: ٦١٥/٣.

(٥) تفسير الرازي: ٩٥/٣١.

يتعيّن من ذَلِكَ اختصاص الأبنية ببعض الدلالات لتوافق ما بين الصيغة الصرفية والمعنى الذي سكب فيها[1]، فاللفظ إذا كَانَ على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلابد أن يتضمن من المعنى أكثر ممّا تضمنه أولاً، لأنّ الألفاظ أدلة على المعاني[2]، وما الأبنية الصرفية فِي حقيقتها أبنية دلالية لأنّ بواسطتها يتم تعريف الكلمات لضروب من المعاني الجديدة[3].

٣- المستوى التركيبي (النحوي):

إنّ وظيفة اللغة هي التوصيل أو التعبير بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فِي كلمات، حيث تنتظم فِي ترتيب وتركيب معين، ومنها ذوات الصيغ (المعجمة)، ومنها لا صيغة له (الضمائر، وحروف الجر)، وتحتل الأبواب النحوية الأهمية في ذلك، وتقوم الكلمات التركيبية الأخرى بتلخيص العلاقة بين هذه الأبواب، أو الدلالة عليها، فترتبط الكلمات أسر بعضها البعض حتّى تصبح وهي متراصة أفقيّاً لأداء المعنى الدلالي أو المفهوم[4].

وَهَذَا الترابط التركيبي النحوي بين الكلمات هُوَ النظم اللفظي للكلمات والنظام أهم خاصية من خصائص اللغة، لأنَّه يحكم سلوك المتكلمين فِي استعمالهم للمفردات اللغوية، ولا وجود للغة بمجرد توافر المفردات بل لابد من وجود نظام يجمعها، ويحكمها ليكون لها وجود حقيقي فعلي، وواقع عملي، فالمستوى التركيبي يختص بقواعد اللغة التركيبية[5] وبه نعرف نسق

---

(١) دلالة السياق: ٣٤٩.

(٢) الإعجاز الصرفي: ٣٩.

(٣) الدلالة والمعنى: ٢١٦.

(٤) ينظر: دلالة السياق: ٤٠٢، ٥٤٥.

(٥) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٢٠.

المعاني، ونحدد أجزاءها، وبه أيضاً نربط بين معانيها ولولا هَذَا النظام من العلاقات الشكلية والمعنوية التي تنتظم النص لما كَانَ ما نتلفظ به كلاماً يعرب عن معنى[١].

وَهَذَا المستوى يرتبط بتنوع المقام والسياق، ممّا يؤدي إلى تنوع الأنماط التركيبية تبعاً لتعدد وظائفها الدلالية، والوقوف على الوظائف الدلالية للتراكيب النحوية يقتضي تتبع السياقات التي ترد فيها هذه التراكيب، لأنّ التراكيب بطبعها تفسح مجال الدلالة للألفاظ إذا انتظمت فيها، ممّا لا يكون هَذَا المجال لها وهي مفردة، لأنّ الكلمة المنفردة لا تحمل قيمة دلالية فِي ذاتها إلاّ إذا تمّ تنسيقها[٢].

والسياق اللغوي عامة عبر علاقاته التركيبية هذه يحقق فائدة فِي النص أو الأسلوب، فهو يرينا المحذوف مذكوراً والمضمر مظهراً، والمجمل مبيناً والعام خاصّاً، والمطلق مقيّداً والمتشابه محكماً، وأمّا اختلط أمره اتضح وما تعددت أوجهه انحصر على وجه واحد، وَقَدْ يكون الكلمة فِي النظم التركيبي أكثر من معنى معروف، فبهذه الحالة نحتكم إلى القرائن المرجِّحة لأحد المعاني، والسياق واحد من هذه القرائن المرجِّحة، إذ يعمل على التفريق[٣]، والاختيار بين المعاني، فكل لفظة لها معنى إفرادي تستقل به، فإذا أُدرجت ضمن سياق ما حملت أوجهاً من المعاني المختلفة[٤].

---

(١) ينظر: السياق والمعنى: ٢٢.

(٢) ينظر: التراكيب النحوية ووظائفها الدلالية: ٣.

(٣) ينظر: السياق والمعنى: ٢٢، ٢٣.

(٤) السياق والمعنى: ٢٣.

لذا فالظواهر الأسلوبية التي تقتضي التأمل فِي القرآن الكريم، ظاهرة الملازمة فِي التركيب النحوي، إذ تتلازم الأطراف النحوية، كملازمة الفعل للفاعل، والفعل للمفعول به، والنعت والمنعوت، والمعطوف والمعطوف عليه، والمبتدأ والخبر، وَهَذَا التلازم بينها يقع فِي سياق دلالي واحد، فِي أي موضع من مواضع القرآن الكريم، فالسياق النحوي يدرس البنية النحوية التي ترد فيها الكلمة بوصفها وحدة نحوية فِي كُلّ متسق، فحينما نتتبع ملازمة الفعل (أخذ) للفاعل (العذاب) فِي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، نجد إنّ الطرفين المتلازمين يشتملان على العناصر القصصية للسياق الدلالي لقصة ناقة صالح عليه السلام[2].

وهناك ملازمات لغوية (مصاحبات لغوية) لا نكاد ننطقها إلاّ وتستصحب معها ألفاظاً أخرى معينة، مثل: (ريح عاصف)، (نخلة باسقة)، ولاشك أنّ هَذَا التخصيص فِي تراكيب العربية فِي النعت والإضافة والإسناد وَهُوَ نوع من الدقة فِي التعبير؛ لأنّ هذه الألفاظ المخصصة ببعض المعاني والأحوال توحي للسامع والقارئ الصورة الخاصة التي تقترن معها[3]. فالنظام النحوي هُوَ نظام تركيب المفردات للتعبير عن الدلالة، ويعتمد على النظام الصوتي والصرفي والدلالي[4].

---

(١) سورة الأعراف: ٧٣.

(٢) ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ٨٧؛ ينظر: جماليات السياق القرآني: ٣٤.

(٣) ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ٨٨.

(٤) ينظر: نظرية النظام اللغوي للقرآن الكريم: ٢٢، ٢٥.

٤- المستوى الدلالي:

إنّ المستوى الدلالي للسياق هُوَ التفاعل بين معاني المادة اللغوية والسياق، لذا تبرز أواصر القربى بين المعاني المختلفة للمادة اللغوية، وتختلف قدرة السياق على اجتذاب معاني المادة اللغوية عن سياق آخر، وكلما كَانَ المعنى السياقي عامّاً زاد قدرته على خلق التقاطع الدلالي بين المعاني للمادة اللغوية الواحدة وعموم المعنى المراد من السياق. والدلالة السياقية هي الدلالة التي يعينها السياق اللغوي وَهُوَ البيئة اللغوية التي تحيط بالكلمة أو العبارة أو الجملة، أو النص[١]، والبحث عن المعنى أو الدلالة هُوَ الركن الرئيسي فِي النظرية السياقية، وَهُوَ النتيجة الحتمية لدراسة المستويات الثلاثة المتقدمة[٢]، لأنه يشغل بتحليل المعاني المباشرة وغير المباشرة والصورة المتصلة بالأنظمة الخارجية عن حدود اللغة، وَهَذَا المستوى من مستويات دراسة العربية هُوَ من أجل ما يعتني به المجتهد والباحث عن تفسير كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، والفقه في العربية عبر مستواها الدلالي هو جناح المجتهد[٣].

(١) ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ١٣٥، ١٣٦؛ وينظر: دلالة السياق: ٥١، ٥٣.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ٢٤.

(٣) ينظر: المنهج البنيوي دراسة نظرية: ٤٢؛ ينظر: أرشيف ملتقى أهل الحديث: ٩٦/٩٧.